أدب الرّحل في الأندلس والمغرب بين التأريخ والتخييل

Travel literature in Andalusia and Morocco between history and fiction

الدكتورة: بن يطو حورية

قسم اللغة العربية وآدابها-جامعة غليزان (الجزائر)

benyettouhouria3@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2022/10/01 تاريخ القبول: 2023/01/28 تاريخ النشر: 2023/03/15

ملخص:

صرف الرحالة الأندلسيون والمغاربة جهدهم العلمي والعملي بأعلى درجات الدّقة والكفاءة نحو التعامل مع التراث الحضاري العربي الذي امتدت سيادته على دنيا المشارق والمغارب من آدابه وقيّمه وعاداته وتقاليده وثقافته الشعبية، لجعل مدونتهم الرّحلية موسوعة تتقاطع على متنها العديد من الأنساق: اللغوية التاريخية، الجغرافية العلمية والأدبية، يتفاعل فيها الواقعي بالتخييلي، لإثارة صورة بصرية في ذهن المتلقي وجعله أكثر قابلية على الإنفعال وهذا الطرح يجعل النص الرّحلي يقوم على فكرة رئيسة مدارها سيكولوجي حسّي، ذلك أن الرّحالة حين يكتب لا يكتب لمجرد التأريخ لرحلة الكشف والبحث، بل ليشخص ما يحتوي عليه باطنه من مشاعر وعواطف، وليست لهذه المشاعر والعواطف أية قيمة فنية ما لم يهتز لها القارئ ويتجاوب مع صاحبها تجاوبا كاملا.

الكلمات المفتاحية: الرّحلة؛ أدب الرّحلة؛ التخييل؛ التأريخ؛ المتلقي؛ الحس؛ المشاهدة.

Abstract:

The Andalusian and Moroccan travelers expended their scientific and practical efforts with the highest degree of accuracy and efficiency in dealing with the Arab cultural heritage whose sovereignty extended to the Oriental and Maghreb worlds from its literaturevalues customs, traditions and popular culture, to make their Travelog blog an encyclopedia on which many people intersect: Historical linguistic, geographical, scientific, and literary, in which realism interacts with imaginary, to stimulate a visual image in the recipient's mind and make it more emotive. This subtraction makes the phased text based on the idea of the head of its psychological orbit sensual, as travelers, when they write, do not write just for the sake of

the history of the journey of discovery and research, but for the sake of a person, the sentiments and emotions inside of it, These feelings and emotions have no artistic value unless the reader is shaken and the person responds fully.
key words: journey; literature; journey; imagination; history; receiver; cultural heritage; observation; sense.

مقدمة:

اشتهر العرب منذ القديم برحلاتهم التي تجاوزت شهرتها الآفاق، وامتدت مسافاتها بمرور الأيام على دنيا المشارق والمغارب، جمعوا فيها الطريف والمستطرف مما تقع عليه أبصارهم من مشاهدات وتوصيفات لكثير من المعارف الإنسانية والثقافية والاجتماعية والجغرافية، للبلدان التي حلّوا بها واحتملوها ونقلوها بصوره حيّة للناس، في كتب زخرت بها المكتبة العربية الإسلامية، وكان من بواعث رحلاتهم: الميل إلى الاستطلاع واكتشاف المجهول أو الرغبة في الحج وزيارة الأماكن المقدسة، أو الأخذ والعطاء كطلب العلم، أو للسّفارة بقصد الصّلح وفك الأسرى وربط أواصر الصداقة بين الحكام، أو اقتصادية كالتجارة والصناعة لذلك تعد الرحّلة سجّلا أنثوغرافيا وأنثروبولوجيا لمختلف مظاهر الحياة البشرية ومفاهيم أهلّها على مرّ العصور، بما فيها من صوّر وأخبار ومغامرات ومعارف وعلوم، تشكل بمجموعها خزائن تحفل بالمادة الثرية لا في مجال التاريخ أو الجغرافيا فحسب، بل تلم بالحضارة الإنسانية، وتمثل تجربة إنسانية تعكس صورة الآخر عبر العصور.

ولسنا نهدف في هذه الدراسة إلى تتبع التقصّي التاريخي لمورفولوجية الرّحلة من حيث بنيتها المعرفية ودلالتها اللغوية والاصطلاحية، أو من حيث التّطورات التي شهدها هذا المصطلح منذ القديم، وإنّما مجرد التلميح بإشارة خفيفة لتلك العلاقة الجدلية القائمة بين ثنائية التأريخ والتخييل والتقاطع الحاصّل بينهما من حيث الوظيفة، على الرغم من أنها تنحصر في إطار فكرة عامة تتلخص في توظيف مجموعة من العناصر الجمالية يستطيع المؤرّخ بواسطتها التأثير في المتلقي من حيث خلق اللّذة والدّهشة على المستويين الحسّي والعقلي، وحمله على الانقياد لمقتضاه التخييلي، ولعلّ السؤال الذي يطرح نفسه على دارس أدب الرّحل، يكون حول العلاقة بين التخييل والتأريخ وكيفية البحث عن اشتغال تاريخانية النّص الرّحلي وصياغته تأريخا وتخييلا في آن واحد؟ .

1. المهاد النظري للرحلة العربية وعلاقتها بالجغرافيا:

شكلت الرّحلة مصدرا غنيا وسجّلا إثنوغرافيا يعتبر الرجوع إليه أساسيا في حقل الأنثروبولوجيا ومادة الجغرافيا، بحيث يجزم الجغرافيون بأن ولادتها أتت من رحم الحقل الجغرافي[1]، إذ ارتبطت عند العرب المسلمين بعلم الجغرافيا فلا« نكاد نلتقي بأي جغرافي عربي مرموق لم يكن قد اعتمد في كتاباته اعتماداً أساسياً على رحلاته»[2]، حيث كان الرّحالة يسجّل ملحوظاته في كتب تسمى بالمسالك والممالك، وهي مؤلفات امتازت بالوصف الإقليمي لأقطار العالم الإسلامي وصفاً جغرافياً مفصلا سّهل التعرف عليها، ورسم الطرق المؤدية إليها ومنها ورسم الخرائط لها وامتازت كتاباتهم بالدّقة والتفصيل، ولعلّ هذا الفهم قد دفع بمحمد الفاسي إلى معاينة الفروق بين مؤلف الرّحلة ومؤلف الممالك والمسالك في قوله:«إن مؤلف الرّحلة يذكر فيها ما يتعلق بنفسه، فينبه مثلا على تاريخ خروجه من وطنه وعلى الأحوال التي أحاطت بسفره، مع الإشارة لأسبابه، ويثبت كل ما يقع له من حوادث أثناء غيبته، وأما مؤلف المسالك والممالك فإنه يكتفي بذكر المسافات وبوصف البلاد التي يمر بها من الناحية الزراعية والتجارية، ويصف أحوال الممالك السياسية والعمرانية، ولا يتعرض لنفسه إلاّ في ما قل»[3].

والذي لا شك فيه، أن الرّحالة العرب استطاعوا أن يساهموا في زيادة المعرفة الجغرافية من خلال رحلاتهم، حيث أضافوا إلى خريطة العالم المعروف آنذاك جهات لم تكن معروفة من قبل مثل: أواسط وشمال آسيا كما في رحلة ابن فضلان في وصف بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة (310هـ) وفي غرب إفريقيا مثل رحلة ابن فاطمة، وفي سودان وادي النيل كرحلة ابن سليم الأسواني في القرن الرابع الهجري، كما تمّ التعرّف على مراحل المحيط الهندي وجزره والسّاحل الشرقي لأفريقيا، وقد سلك الرحالة العديد من المناطق وقدّموا عنها وصفاً جغرافياً مما سهل التعرف عليها ورسم الطرق المؤدية إليها ومنها، ورسم الخرائط لها وامتازت كتاباتهم بالدّقة والتفصيل[4].

ولكن بعد أن استقلت الجغرافيا كعلم مستقل قائم بذاته، أصبحت الرحلة فنا أدبياً يقوم على علاقة زمنية مكانية تعتمد المتعة والتشويق، رغم اعتماد الرحالة فيها بدرجة كبيرة على الصّدق في وصف مشاهداته وعرض خواطره بدّقة، لأنها من الحقائق الأنثروبولوجية عن طبيعة المجتمعات التي زاروها خلال تلك الفَترة، ثم تطور هذا الفن وارتقى في مستويات الإبداع والتجديد، حتى أصبحت الرّحلة من أشهر الفنون الأدبية التي تعنى برصد الحياة الثقافية والاجتماعية للشعوب والمجتمعات، وقد ساعد على ازدهارها اختلاط الشعوب وحب الاطلاع والكشف فتضاعف الاهتمام بها واتسعت دائرتها لتتجاوز الأدب إلى غيره من الحقول المعرفية ذات الصلة مثل التاريخ والفلسفة والاجتماع والاقتصاد[5].

2. قيمة الرّحلة وأهميتها:

إن الباحث في موضوع أدب الرِّحل، لا تكاد تخفى عليه الملامح الثقافية العامة للرّحلة من حيث قيمتها وأهميتها، فهو ينظر من هذه الناحية إلى الرّحلات كمبدأ وككل مهما كان بينها اختلاف في الاتجاه والتقدير، وهو الأمر الذي أقرّه شوقي ضيف، واتفق عليه حسيني محمود حسين، في كون أدب الرّحل منبعا ثريا لمختلف العلوم يختلف ويتنوع في الاتجاه والتقدير، من نص إلى نص حسب بواعثه وأهدافه ومضمونه، وبهذا فهو يحتوي على قيمتين عظيمتين: قيمة علمية وأخرى أدبية، تتجلى القيمة العلمية للرحلة فيما تحتويه على كثير من المعارف الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، التي يسجّلها الرّحالة ويدون مشاهدتها الجغرافية تدوين المعايّن في غالب الأحيان من جرّاء اتصاله بالطبيعة وبالنّاس وبالحياة خلال رحلته، فعندما يتحدث عن الممالك والبلدان والأقاليم والاصقاع والمدن يصف الطبيعة وعادات السكان وتقاليدها وغير ذلك، فإنه يعدّ من هذه الناحية مرجعا أساسياً ومعيناً واسعاً وكبيرا للعالم الجغرافي الّذى يبحث ويدرس تلك الموضوعات[6]، وهذا الطرح يجعل أدب الرِّحل يقوم على فكرة مدارها إبستمولوجيا تجريبيا (قيمي معرفي)من خلال إدراك هذه القّيمة، أما القّيمة الأدبية للرّحلات فتتلخص في موادها من الأساليب التي ترتفع بها الى عالم الأدب وترقى بها الى مستوى الخيال الفنّي[7]، بما تقدمه هذه المواد من متعة ذهنية، تمنح المتلقي كفاءة وشجاعة لمواجهة الموقف والانفعال معه بشكل إيجابي يدرك قيمة العمل الأدبي وفهم محتواه، ومن ثم اتخاذ المواقف الملائمة لأحداثه.

ومعلوم أن الذي يقوم بهذا التأريخ والتدوين للثقافات المتباينة والتعريف بالأقوام المختلفة، هو رّحالة جيّد ذو مستوى ثقافي معين، ويتمتع بقدرات نفسية وعقلية لا يتمتع بها غيره من الناس، وهذه القدرات هي أساس موهبته في نقل أحداث سفره إلى كتابة ومزجها بين التأريخ والتصوير، تصويرا فنّيا ينفعل لها المتلقي متعة واثارة، فهو « من ناحية يولي وجهه شطر العلوم، أعني العلوم الدقيقة وذلك بالمعنى الذي نفهمه حاليا،... ومن ناحية أخرى فهو يولي وجهه شطر الأدب الفني بالغا ببعض أثاره فيهذا المجال ذروة الإبداع[8]» ، و لهذا يقتضي من الرّحالة ثقافة واسعة ودّقة في الملاحظة والتقاط الملامح المعبرة، ومشاركته في عدد كبير من المعارف المتعددة والمختلفة، لاحتواء الرّحلة على معارف وعلوم كثيرة متعلقة بالتاريخ والجغرافية والعمران والفلسفة والاجتماع والأدب، كما تفرض الأناقة في تخير المفردات وصياغة العبارات وتنسيق الفصول[9].

وعلى هذا الأساس، اعتبر شوقي ضيف أن أدب الرِّحل خير ردّ على التهمة التي طالما اتهم بها الأدب العربي، وهي تهمة قصوره في فن القصة، ثم سعى إلى تبخيس هؤلاء المتحاملين على التراث العربي بقوله: «ومن غير شك من يتهمونه هذه التهمة لم يقرؤوا ما تقدّمه كتب الرحلات

من قصص عن زنوج إفريقية وعرائس البحر وحجاج الهند وآكلة لحوم البشر.. وعبدة النار والإنسان البدائي والراقي مما يصوّر الحقيقة حينا ويرتفع بنا إلى عالم خيالي حينا آخر» [10]، ولعلّ عبارة شوقي ضيفي على انفعاليتها الواضحة أماطت اللثام عن البعد القيّمي لأدب الرِّحل ورؤاه المضمونية وغنى موضوعاته وخلّوه من العبث اللفظي والتكلف في تزويق العبارة إيثارا للتعبير السهل المؤدي للغرض، لنضجه بغنى تجربة صاحبه، مما يفتقده الكثير من الأدباء والمحترفين في عصورنا الأدبية[11].

في حين نجد صلاح الدين الشامي يضع للرحلة مقابلات متعددة: فمرة هي انجازا أو فعلا وطورا هي هواية أو احتراف، إذ يقول: «إن الرحلة تظل إنجازا أو فعلا أو مباشرة لما يعنيه.. أو هواية تستهوي الانسان، أو رغبة ملحة تشبع حاجاته وترضيه وقد تكون الرحلة احترافا يخدم مصالح الإنسان أو التزاما وواجبا يلبي حاجات»[12] ومما يبدو فإن توظيف هذه المسميات التي نرى أنها تصب جميعها في العديد من الكتابات النقدية في مفهوم دلالي واحد، وهو أن الرحلة في جوهرها حركة، وهذه الحركة ذات هدف، وإلاّ كانت من عقيم النتاج قد يتحقق وقد لا يتحقق هدفه «وسواء أكانت الرحلة هواية أو كانت احترافا فإنها لا تتجرد من الهدف وهي تضرب في الأرض بل قل إنها على كل المستويات وبكل الوسائل لا تكاد تتجرد من المسؤولية واستشعارها ولا تكاد تخلو من بعض المخاطر والمخاطرة»[13].

أما حسيني محمود حسين فيحدّد الرّحلة بأنها منبع ثري لمختلف العلوم والمعارف المتباينة في قوله: «هي منابع ثرة لمختلف العلوم، وهي بمجموعها سجّل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مرّ العصور، فالرحالة وهو يطوي الأرض أثناء رحلته يغطي في نفس الوقت ملاحظة مظاهر مختلفة في الحياة يشاهدها أو يسمعها أحيانا وينقلها في رحلته»[14]، لما تحتويه من تاريخ أخبار الماضين والمعرفة الجغرافية للأقاليم وفي الآداب والشعر، مما يجعل ضبط معاييرها وتعيين مقاييسها أمرا صعبا فيه مشقة واستقصاء، فالرّحلة ليست ملتقى للأساليب والأجناس الأدبية فحسب، وإنما هي كذلك ملتقى للمعارف والفنون والثقافات؛ إذ تتصل بأمور كانت من صميم الجغرافيا؛ كعلم السكان والاقتصاد دون أن تهمل ميدان السياسة والاجتماع والتربية والتعليم وغيرها، ولذلك تعددت روافد الثقافة في سرود الرحلة العربية إلى درجة يمكن عدها موسوعة الثقافة في العصر الذي دُوّنت فيه، فهي ميدان معرفي وثقافي غني بالرموز والدلالات[15].

ومجمل ما نلاحظه في هذه الآراء النقدية، التي أشار إليها حسيني محمود حسين وشوقي ضيف وصلاح الشامي في إثبات القيمة العلمية للرّحلات واعتبارها جزءا مهما من التاريخ الاجتماعي ووسيلة من وسائل التواصل الثقافي والتبادل العلمي المعرفي بين الشعوب، لا يعنى

ذلك أن أسلوب أدب الرّحل قد تخلص من كل الصفات والعيوب الأسلوبية الأخرى، فهو قد يرتبط سياق اشتغاله بالغلّو والسجع أحيانا وعلى الجفاف والصّرامة العلمية أحيانا، ومع ذلك يوجد فيه من الامتاع والحيوية، وهو أدب يهتم اهتماماً كبيراً بتنوعه وثروة مادته فهو تارة علمي وتارة شعبي، وهو طوراً واقعي وأسطوري على السواء تكمن فيه المتعة والفائدة معا ولا يوجد مثيل لها في أي أدب معاصر للعرب[16].

كما أن معاينتنا لنقطة الالتقاء، بين الرحلات الجغرافية القديمة وبين القراءات النقدية العربية الحديثة، في فهمها لبنية التأريخ ووظيفتها التأثيرية لا يمكن إغفالها، فهي وإن قدمت وجهات نظر تتباين في بعض الوجوه وتتفق في وجوه أخرى، إلاّ أنها تمثل صورا متعددة لحقيقة واحدة، وهي جمالية التصوير لتلك «الملامح الإنسانية والثقافية والاجتماعية والجغرافية للأماكن التي حلّوا بها، فالرحلة تعكس النهضة والحضارة العربية وهي إلى جانب ذلك تقدم لنا صورة للآخر لتثير فينا الشعور بالمنافسة والرغبة بالتفوق»[17].

3. دواعي الرحلة العربية والتأليف فيها:

3.1 الرحلة المشرقية:

عُرف العرب بحب الرّحل والأسفار منذ القديم، ميلا إلى البحث الدائم عن متطلبات الحياة البيولوجية المختلفة والممكنة في طلب الرزق والكلأ، فقد أشار القرآن الكريم الى رحلتي قريش التجاريتين الى الشام واليمن، في الشتاء والصيف في قوله تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ قريش1. 4، فضلا عن الحركة المستمرة للرّعي والصّيد، فقد مارس الإنسان الصّيد والطّرد منذ أعصار سحيقة باحثا عن قوته أو مدافعا عن نفسه، أو ناشدا الرياضة والمتعة، وإلى جانب ذلك أصبحت الرحلة عنصرا أساسيا من عناصر القصيدة الجاهلية، ومكون ثقافي لإنسان المنطقة العربية قبل الإسلام وبعده تبدى تأثيرها في لغته وإبداعه، فكانت تشكل قطب الرحى في البنية الأولى من القصيدة الجاهلية، ومن ذلك حضورها المتكرر في مطالع القصائد العربية عبر عنصر رحلة الضغائن على الهودج، التي كانت تمثل الهجرة الموسمية للقبائل البدوية، تفرض على أهلها رحلة مستمرة واضطرارية من أجل الانتجاع، كما أنها حاضرة في بنية الرّحلة التي يركب فيها الشاعر ناقته ليغادر ساحة الأطلال[18] « فطبيعة المجتمع البدوي القائمة على النقلة والرعي وحماية مواطن الغيث، وما يتصل بذلك من حروب تقطع وشائج الدم و الحلق والحب جعلت من الجاهلي إنسانا عالقا بالأرض في جميع شؤون حياته»[19]، ومع أن هذه الرحلات العربية القديمة لم تدّون على نحو أدب الرّحلة كما نعرفه إلاّ أنها وصلتنا ضمن مضامين الشعر الجاهلي، أوضمن تراجم بعض الشعراء فيما بعد، كقول الأعشى[20]:

كَأَنّي وَرَحْلِي وَالْفِتَـانَ وَنُمْـرُقِي عَلَى ظَهْرِ طَاوٍ أَسْفَعَ الخَدِّ أَخْثَمَا

وقول النّابغة الذّبياني:

كَأَنّي شَدَدْتُ الرَّحْلَ يَوْمَ تَشَذّرَتْ عَلَى قَـارِحٍ مِمَّا نَضَمَّنَ عَاقِلُ

فالمتأمل في هذه المضامين الشعرية، يستطيع أن يقرّر أن هذه الرحلات كانت مجرّد ممارسة أو فعلا متبعا، كالتجارة أو البحث عن الانتجاع ولم ترتقِ إلى مستوى الفن القائم بذاته، ولعلّ مردّ ذلك إلى سيادة الطابع الشّفوي الذي لم يكن له صلة بالكتابي، فهذه الرحلات كثيرا ما كانت تروى تفاصيلها في مجالس السّمر والأدب بكثير من التشويق والإمتاع وتستقبل بحفاوة وتلهف لا نظير لها[21]، إلاّ أنها أفادت العرب بفوائد علمية، تتجّلى في فتوحاتهم التي انطلقوا فيها إلى ما جاورهم من البلدان التي لم يكن لهم بها سابق معرفة وقدمت لهم تجارب ومعارف جديدة كلما توسعوا في هذه الفتوح[22]، ثم بدأت تتغير الأهداف وتتنوع الدوافع في الرحلات «حتى صارت فنا عربيا أصيلا في النثر العربي بسماته التاريخية والجغرافية واهتمامه بحياة الناس وتقاليدهم وأنماط عيشهم وبمضمونه الفكري والاجتماعي، وأسلوبه الأدبي المتميز غالبا عما سواه»[23]، الذي يعانق فيه الواقع الخيال[24]، ولعلّ المفهوم الضمني لهذه العبارة أنّ أدب الرحلة يطرح مقولات تومئ إلى وجود وشائج علائقية بين الواقع والخيال فبواسطة الخيال يستطيع أديب الرّحل أن يلّم بفكرة حقيقية ثم يشقّقها ويقلبها بمختلف التصنيفات المجازية وينقل بالقارئ في أودية من المعاني التخييلية ويسبح معه في عالم يرى كل ما فيه جديدا .

وهذا مّا أكسب الرّحلة شكلاً علمياً وأدبيا متميزا، سنح لها أن تنفتح على شتى العلوم التّاريخية والجغرافية والاجتماعية أو الأنثوغرافية، مما «جعلها تكتسي طابع الموسوعية في قوالب تتآزر فيها الجانب التعليمي بالإمتاع الأدبي»[25]، علما بأن سرود الرحلة العربية لا تتعلق فقط بالرحلات الواقعية وإنما تحفل أيضا برحلات خيالية، حيث شكلت الرّحلة العربية مزيجا من عناصر الفكر والأدب والإبداع وعكست تفاعلا بين رؤية العين وإبصار المخيلة أو القلب ويعزز هذا التوجه في الفهم، كون تلك الرحلات قد صيغت بأسلوب أدبي جميل، وذلك بانتقاء أجزل الألفاظ وأعذبها والارتقاء بالوصف من المألوف إلى الغريب والعجيب في البلاغة والتركيب علاوة على ما قد يستعين به الرحالة أحيانا من أسلوب قصصي سلس ومشرق وشائق[26].

ولا مندوحة لنا من الإقرار، بأن جلّ الباحثين اتفقوا على أن الرّحلة العربية مرّت بأطوار مختلفة، حتى بلغت أوجّ تطورها في القرن الرابع الهجري وبدأت تأخذ طابعاً جدياً وعلميا دقيقا للتأريخ مع اتساع دائرة التّأليف والتّصنيف، وهو ازدهار أدّت إليه عوامل كثيرة كان أهمها الازدهار الحضاري الذي عرفه القرن نفسه[27]، أما القرن الثالث فقد اقتصر في أغلب أعماله على الجزيرة العربية وما صاقبها، بينما تخلص كتاب القرن الرابع ورّحاليه من هذا الانغلاق

وتوسعوا لتشمل رحلاتهم ومؤلفاتهم العالم، وهو ما أكدّه الأستاذ عبد الرزاق موافي حين رأى أن: «القرنين الثالث والرابع أكمل كل منهما الآخر وشكل سلسلة متواصلة الحلقات ساهمت في تقديم صورة ممتازة للعالم الإسلامي وصورة جيّدة للعالم بأسره»[28]، ويستدّل عمر بن قينة على صّحة ذلك، في كتابه (اتجاهات الرّحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة) بالمؤلفات التي دوّنت في هذا الفن[29].

وهكذا، بدأت الرّحلة العربية ضيّقة ثم اتّسعت مع مرّ الزّمان باتساع الرّقعة الجغرافية وتطّور الحياة العقلية والحضّارية بعد مجيئ الاسلام، خاصة خلال فترة الفتوحات الإسلامية وما تلاها من عصر المعرفة والحضارة والاستقرار «في ديار المسلمين وفرض النظّام في ربوعها واشاعة هيبة الدّولة في ما وراء هذه الدولة الديار في أنحاء واسعة من جزيرة العرب»[30] مرورا بمراحل الخضوع والاستسلام لمحتل قوي وحقب مليئة بالقلق السياسي وبنشاط علمي وأدبي على الصعيد الثقافي[31]، ثم أخذت تشهد بعد ذلك نهضة ثقافية واسعة ونسقا معرفيا يكشف الرؤى الحضارية التي اختزنتها المجتمعات والشعوب ابتداء من القرن الثالث الهجري حتى نهاية القرن التاسع الهجري[32]، واستمر التأليف فيها إلى أن أصبحت فنا متمايزا موسوما بالتشويق والمتعة فتعددت أنواعهاّ بتعدد أغراضها البشرية التي تستدعي القيام بها[33]، وتباينت غاياتها بتباين أهدافها العلمية وحوافزها السياسية والدينية والاقتصادية، فتضاعف الاهتمام بها واتسعت دائرتها لتتجاوز الأدب إلى غيره من الحقول المعرفية ذات الصلة، كالإثنوغرافيا والأنثروبولوجيا، والايديولوجية والسيوسيوغرافيا.

3.2 الرحلة المغربية الأندلسية:

لعلّ الباحث في موضوع أدب الرّحلة لدى البيئة الثقافية المغاربية، لا تكاد تخفى عليه ملامح التأثر بالروافد الأندلسية والتأثير في الأصول العربية عامة فالمعطيات الموضوعية لعملية اللّقاح الفكري مع الثقافة الأندلسية كانت متوافرة في البيئة المغاربية، وهذا لعدّة عوامل منها عامل الوحدة الدينية وأول ما ينبغي أن نشير إليه في هذا الموضوع، أنه يصعب علينا معالجة أدب الرّحلة في نطاق الأدب المغربي القديم دون ربطه بالأدب الأندلسي، ولعلّ الرابط التاريخي والثقافي لهذا الوصل الحضاري، راجع للخصائص الدّينية واللغوية الوثيقة بين العُدوتين، والتي كان لكل منهما أثر بارز في ذلك الامتزاج في بوتقة واحدة مع مسلمي الأندلس، ويضاف إلى هذا عامل آخر وهو عامل الاستقرار والقوة الذي تّم على أيدي المغاربة والمتمثل في جهاد المرابطين والموحدين في الأندلس، والذي كان سببا في الوحدة السياسية وبقائها قرابة أربعة قرون أخرى ومدى سعيهما في تثبيت الوجود الاسلامي، ومع هذا فإن العامل الديني كان الأهم والأقوى في

قيام الوحدة السياسية بين بلدان المغرب والأندلس أو هو محور الأساس الذي تدور حوله كل القضايا الأخرى سواء أكانت لغوية أم سياسية[34].

أ. الرحلة المغربية في ضوء التأثيرات الأندلسية:

كان الفتح الإسلامي نقطة البداية في هذه الرّحلة، بعد أن استكمل مسيرته في المغرب وانتشر، فدعا الوضع بطبيعة الحال للتوجّه إلى الأندلس، فخرج قسم من الرّحالة مبتغيا ما وراء الحيّز المكاني، لأسباب معينة ومقصودة نجملها فيما يلي:

طلب العلم: دخل الأندلس عدد من المغاربة طلبا للقاء شيوخها والأخذ عنهم بغرض الاستزادة منهم أو بحثا عن الفائدة، حيث تذكر كتب الحديث والسيّر أن عددا من الفقهاء والعلماء من كان يقطع الصحاري والفيافي طلبا لحديث نبوي سمع به، أو لمجرد التحقق من كلمة وردت فيه[35]، كون الإنسان في كل الأحوال تزداد رغبته في السؤال مع تقدم الوعي وتجدد الحاجات للوصول إلى نتائج محدّدة تؤكد السبق والتميز والتفوق، فنجده لا يكف عن السؤال ..متى ..كيف، ولماذا؟[36]، ولعلّ هذا المعنى قد ما أشار اليه صلاح الدين الشامي في قوله: «ولأن الانسان سعى على قدميه وتحمل مشقة السفر ينبع من حسّ فطري وتأسيسا على استنفار هذا الحس الفطري، جدّ الإنسان واجتهد لكي يبتكر الوسيلة والوسائل لكي تستخدمها الرّحلة ولكي توسع دائرة انتفاعه بالرحلة..[37]» ، لذلك فالرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والفضائل بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال[38].

اللّجوء: كانت مدينة القيروان مهدا للحضارة العربية الإسلامية في إفريقية وملتقى للمهاجرين والرحالة بين المشرق والأندلس من جهة، وبين المغرب والأندلس من جهة أخرى، مما جعل القيروان رابعة الأمصار العربية إلى جانب الكوفة ودمشق وبغداد، ولكن هذا الوضع لم يدّم خاصة في الفترات التي مرّ فيها المغرب بصعوبات ونكبات إثر غزو بني هلال على إفريقية أيام الدولة الفاطمية، بعد ما حمل المعز بن باديس الصنهاجي الناس على مذهب الامام مالك وأعلن انفصاله عن الفاطميين[39] فكان الانتقام صميمهم ولم ينج من أذى أعراب الاسماعلية الاّ من غادر البلاد إلى الأندلس، ومن بين الطلبة اللاجئين الى الأندلس بعد خراب القيروان نجد: علي بن عبد الغني الفهري ومحمد بن عبد المنعم بن عبد الله بن أبي بحر[40].

الوظيفة: تولى عدد من الدّاخلين إلى الأندلس وظائف من قبيل القضاء والفتيا كأبي على الكلاعي من أهل صفاقس[41]، وابن أبا الخصال الذي ترقى في المناصب إلى أن أصبح رئيس كتاب الأندلس، والقاضي عياض السبتي الذي قضى مدة طويلة في الأندلس قاضيا بغرناطة[42].

ب. الرحلة الأندلسية في ضوء التأثيرات المغربية:

قام الأندلسيون بعدة رحلات متباينة، بعضها يتعلق بالأوضاع الاقتصادية والسياسيّة التي عاشتها البلاد خلال العهدين المرابطي والموحدي، نذكر من بينها:

رحلات من أجل تولّي الوظائف: تولى عدد من الأدباء مناصب مهمة بالمغرب، ممن اشتغلوا بالقضاء والتعليم، كعبد الرحمن بن أسباط الذي أقرّه يوسف بن تاشفين كاتبا له واعتمد عليه في كتابة رسائله وتدبيج أوامره ومراسيمه وابن القصيرة، سفير العدوتين الذي يرجع إليه الفضل في جذب صفوة أدباء الأندلس إلى المغرب، وعبد المجيد بن عبدون الذي استدعاه ابن تاشفين للعمل في بلاط مراكش، وكذلك ابن الصيرفي وغيرهم[43]، أما التعليم فقد شهدت بلاد المغرب توافد العديد من الأندلس بغرض التدريس في مختلف العلوم والمعارف الدينية ففي مجال التفسير، نجد المفسّر ابن الخصال الغافقي الذي استقر بمراكش ما يقرب عن ثلاثين عاما في عهد يوسف بن تاشفين، كما توافد على جامع القرويين بفاس عدد من العلماء لتدريس اللغة العربية كمحمد بن الحكم السرقسطي الذي كان متضلعا في علوم اللغة العربية، فأخذ عنه الكثير من الناس فنون اللغة والعالم النحوي أبي إسحاق إبراهيم الشاطبي وغيرهم ممن كانوا ملمين باللغة العربية[44].

رحلات الفرار خوفا من العقاب: كهجرة لسان الدين بن الخطيب من الأندلس باتجاه المغرب فرارا من فتنة المؤامرات والسعايات التي دبرها أعداؤه للإيقاع بينه وبين ملكه الغنّي بالله بعد ما كان بينهما من ود وصداقة، فلم يعد بقاؤه آمنا في غرناطة وسط هذا الجو المشحون بالتحامل والكره[45].

رحلات اللّجوء بسبب فقدان الموطن: فرّ المسلمون بأرواحهم من الأندلس نحو المغرب بسبب استيلاء النصارى عليها، مما اضطرّ الكثير من أقطاب العلم إلى اجتياز المضيق والاستقرار بالعدوة المغربية، كمحمد بن أحمد بن مطرف بن سعيد التجيني الذي توجه إلى فاس بسبب استيلاء النّصارى على بلده[46]، ولعلّ ما نجده من تصوير اللوعة في مشاهد الوداع والموضوعات الوجدانية . فيما يكتبه الأدباء . وثيق الصلة بالإنسان الأندلسي الذي رحل عن موطنه، إذ تتجلى في رحلاتهم معاني الاغتراب بكل أشكاله واللحظات الفاصلة بين فرح اللّقاء لمن تمكن من العودة ومرارة الفراق لمن قضى ما تبقى من حياته حالم بالإياب[47].

من هنا، ندرك أن الرّحلة المغربية الأندلسية وسيلة للنجاة وضرورة أملتها ظروف تاريخية قاسية، عندما تغيرت الأحوال وانقلب الدّهر وصار خيار الناس ليس له قدر، فاضطر بعض الأدباء المغاربة والأندلسيين على مغادرة موطنهم ومرتع صباهم مجبرين، فرارا بأرواحهم إثر سقوط بعض المدن في الحروب الداخلية على يد العدو الأجنبي[48]، وكان من الطبيعي إذا أن تتجانس العقول وتتآخى الأساليب وتتسع آفاق التفاعل والاحتكاك بينهما، في الطّباع والأذواق

والعادات والتعليم، ولنا أن نلمس جانبا من هذا الارتباط الوثيق في نصّ ابن خلدون، إذ يقول: «وأما أهل افريقية.. فطريقتهم في تعليم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الأندلس، لأن سند طريقتهم في ذلك متصل بمشيخة الأندلس الذين أجازوا عند تغلب النصارى على شرق الأندلس، واستقروا بتونس وعنهم أخذ ولدانهم بعد ذلك».[49]

4 . النّصي الرّحلي بين ثنائية التأريخ والتخييل:

من المؤكد أن التأريخ هو توثيق لمجموع الحوادث التي وقعت في الماضي، وهذا الأخير« هو الحقل الذي تتناوله المعرفة التاريخية عبر نقل وقائعه في حيز الزمان والمكان، على أن النقل قد يكون شفاهيا بصيغة الرواية الشفهية من راو إلى راو ومن جيل الى جيل، أو بصيغة التدوين المتناقل من نص الى نص»[50]، وعندما تدون هذه الوقائع «فإن التدوين يصبح جزءا لا يتجزأ من التراث التاريخي الذي يحمل في ثناياه أثقالا من المعارف التاريخية»[51]، أما التخييل فهو قصدُ المؤرخ الذي يدفعه إلى صناعة تاريخانية النص الرّحلي ومحاكاته لأحداث الماضي ومعطياته في قالب سردي فني، وفي كلتا الحالتين يستخدم السرد عناصر من الخيال والتصورات فتمتزج الوقائع المحكية والمتناقلة بأسلوب القصص والأساطير[52].

وبهذا المنظور، تشكل الّرحلة ركنا بنائيا من أركان نظرية الأدب بعناصرها الثلاثة: (المبدع/النص/القارئ) كما تشكل في الوقت نفسه، الأصول الجمالية التي تنبني عليها شعرية النص الرّحلي في مستوياته اللغوية والدّلالية، ومن هنا، ينأى العمل من دلالته الموضوعية إلى الدّلالة الفنّية التي أصبحت تحمل دلالة التخييل والتأريخ المقترنة بالإبداع والتلقي على صعيد التصورات المتباينة والمدركات الحسيّة المنقولة عن الواقع، وجعلها أكثر قابلية على إثارة انفعال المتلقي ولعلّ هذا الربط بين التأريخ والتخييل يقودنا إلى الوقوف على عملية اقتران الرّحلة بالتجربة الحسّية لأن الانفعال النفسي مترتب على الإحساس بالنص الرّحلي وبمادته وتشكله ومقصده والمقصد ـ هنا ـ يرتبط بمدى حجم الثقافة التي يتمتع بها المتلقي ورؤيته الإبداعية التي تساعده على سرعة الاستجابة للعمل الموصوف والتفاعل معه .

فالغرض من النص الرّحلي على اختلاف مادته هو بمقدار الدهشة والعجب التي يحدثها في المتلقي، ودفعه للتأمل ولإعمال ملكاته العقلية والذوقية في التفاعل مع هذا النمط الإبداعي، الذي يتخذ من كل خارق للعادة والمألوف موضوعا له[53]، ويبدو أن الرحالة المغاربة والأندلسيون كانوا ملزمين بضرورة الوعي بسيكولوجية التأريخ وسيكولوجية التلقي على السواء وأهم من ذلك إدراك مغزى المتن الرّحلي وآثاره الناجمة بالنسبة للكاتب والمتلقي وعلاقة هذه الآثار بمغزى الحياة نفسها، وبهذا يعدّ أدب الرّحل من العناصر الجوهرية المتعلقة بالإبداع

الشعري ووظائفه النفسية، الذي يمثل العلاقة بين المبدع و المتلقي سواء أكان ناقدا أم متذوقا.

والحق أننا لو تجانفنا الحديث عن الرحلة كجنس أدبي، لأفضى بنا ذلك إلى كتابة مجلد كامل، لأن النقاد العرب قد شغلوا بموضوع الشعر منذ القرن الأول للهجرة، فتحدثوا عن حدّه وخاضوا في ماهيته وأشكاله وأنواعه، ذلك أن الشعر «ليشترك مع جملة من الفنون التعبيرية الأخرى، وبمقدار ما يبدو التساؤل عن ماهية الشعر بسيطا إلى حدّ السذاجة، فإنه يبدو في الوقت نفسه معقدا عويصا بل اشكالا إلى حدّ الإعضال[54]».

ولا شك في أن موضوع الرّحلة يندرج ضمن هذه الفنون فهي مبثوثة في أكثر الكتب التي تناولت الشعر الجاهلي، لأن أي ناقد يفسر ويحلّل قصيدة جاهلية سيعرج حتما إلى تحليل بنية الرحلة[55]، ذلك أن النقاد العرب القدماء حاولوا إيجاد حدّ للشعر، فاختلفوا فيه اختلافا كبيرا بين إقامة وزن وإجراء قافية وبين إجادة محاكاة وحسن تخييل، وقد تطرق الرحالة المغاربة والأندلسيين خلال القرن السابع والثامن الهجريين إلى هذه العناصر من خلال الإشارة إليها في وقفاتهم النقدية اتجاه الخطابات الشعرية، وهي مرحلة هامة في تاريخ النقد القديم بصفة عامة وبكل ما يتعلق بمفهوم الشعر خاصة، حيث يعدّ نقاد هذين القرنين « فاتحة عهد جديد فيما يخص الدراسات النقدية في الغرب الإسلامي حيث استطاع النقد الأدبي خلال هذه الحقبة توسيع دائرة اهتماماته والرقي إلى صياغة المفاهيم النقدية»[56] .

وليس مهمتنا هنا، تقديم كل الرحلات الأندلسية والمغربية التي بنت صرح عملية التأريخ الاجتماعي للشعوب العربية والاسلامية، بوصفها انجازا علميا تعكس القراءة الحضارية لما كانت تقع عليه عيونهم خلال رحلاتهم المختلفة، فهي وإن اختلفت كثيرا في مادتها إلاّ أنها تتفق جميعا على أنها عملية ثنائية مشاركة تقوم على التأريخ والتخييل، سواء أكان التخييل هنا سردا أو شعرا، ولهذا سنركز على التخييل عند القارئ من حيث الفهم المحصّل لموضوع الرحلة والتأريخ لحوادثها عند الرحالة من حيث هو وسيلة لتكوين رؤيته ونقلها للمتلقي باستدعاء الخيال والألفاظ والعبارات والموسيقى، مع مزج ذلك بعاطفته ووجدانه لإشراك المتلقي في تجربته الشعورية، ولا شك في أن الرّحالين قد يختلفون فيما بينهم في دّقة ملاحظتهم وفي درجة اهتمامهم وفي نوع هذا الاهتمام، حسب قدرتهم وذوقهم وثقافتهم الأدبية، كما يختلفون أيضا في درجة صدقهم وأمانتهم حسب فهمهم للأمور تحت الظروف المختلفة التي يخضعون لها[57].

من هنا، تتحقق القيمة الجمالية للنص الرّحلي، بهذا التفاعل الدلالي الذي تتميز به هذه الثنائية وما تحمله من حمولات فنّية وقيمّ جمالية، تعمل على هز النفوس وتحريكها ارتياحا أو نفورا أو ما تركب منهما، ولعلّ أهم ما يلفت النظر في هذا الكلام، أن النص الرّحلي

عملية مشتركة بين الشاعر والمتلقي، والقاسم المشترك بينهما هو الانفعال، ومثال ذلك ما أورده يحي بن الحكم الغزال، حول خطر الرياح الشديدة التي واجهته في رحلته وعرضته للغرق في البحر، في قوله:[58]

قالَ لي يَحيى وَصِرنا بَينَ مَوجٍ كَالجِبـــالِ
وَتَوَلَّتنـــا رِيـــاحٌ مِن دَبـــورٍ وَشَمـالِ
شَقَّت القِلعَينِ وَانبت تَت عُرى تِلكَ الحِبالِ
وَتَمَطّى مَلَكُ المَـــو تِ إِلَينا عِن حِيـــالِ

فهذا المشهد التأريخي بمدلوله الحسّي، هو في غاية الأقاويل الموجبة للفزع والحزن من خلال التأثير في سلوك المتلقي وانفعاله عن القول الشعري، لاسيّما في قوله:« وصرنا بين موج كالجبال» أي: الغرناطي ومن ركب معه السفينة، يريد بها الطوفان وهي متعالية في البحر كالجبال في ضخامتها وارتفاعها عن البحر، ويحرو بنا القول في صدق، أنه مشهد يمثل أقصى درجات التخييل لما فيه من بعث الخيال في النفس وتحريك الذهن وإلطاف الروية والفكر، في تخيّل سفينة تصارع أمواجا كالجبال، حتى يبالغ في تحقيق الشبه، فيكون التشبيه حينئذ حدثا لغويا وعملية ذهنية عمادها التخييل بصورة المشبه به.

ومما يلاحظ أن دلالة التشبيه الحسّي لا تقصد لذاتها، بحيث أن الشاعر يريد أن يقرّر خيبة أمله وبوار سعيه في النجاة، فجعلها شاخصة أمام المتلقي في صورة حسّية بصرية، وهي صورة الرجل الذي يحاول الخلاص من الأذى بأي طائل ويمضي الغرناطي في إبراز دلالة التمثيل، فيها شيء من الإشارة والشبهة، في قوله: « تمطى ملك الموت إلينا عن حِيال» ولعلّ سحر الصورة الشعرية يكمن في هذا التشخيص الذي وصف به ملك الموت وهو يسير إليهم سيرا متمهلا متلكئا على حين غِرّة، على أنه قدر محتوم بقدرة الله عز وجل.

والظاهر أن الصورة التشبيهية الجيّدة التي يعتمدها الشاعر تتيح له فرصة التعمق في تصور العلاقة بين الأشياء المتباعدة والمتنافرة، ومدى تأثيرها على المتلقي دونما اختيار، سواء بمدلولها الحسّي الذي يتشكل بكل صنوف التعابير المجازية أو بمدلولها الإيحائي الذي يضفي على الشكل أكثر من تفسيره الظاهري، ولعلّ هذا هو مبعث ما ينتاب الفهم من دلالة تلك الصّور التي تضاهي في أثرها أثر الأحوال المستطابة والشاجية التي يستشعرها المتلقي وتكون

قريبة إلى مداركه ومشاعره للحظة الانفعالية، وهو ما أشار اليه السجلماسي بقوله: «ولا خفاء بارتباط الانفعال هنا والارتياح بما يقرع السمع ويفجأ البديهة فقط دون ما عداه، والانفعال التخييلي بالجملة هو غير فكري»[59].

ومما يستفاد من هذا الكلام، أن مسألة الإحساس ملازمة للنفس الانسانية منذ الأزل لآنها من الأمور القريبة إلى مدارك المتلقي ومشاعره، لذا لا يمكن التخلي عن هذا الشعور الإنساني . سواء أكان سلبا أم ايجابا . في النظرة والتفاعل مع الواقع المتغير بشتى صنوفه وأحواله السارة المستطابة والشاجية، ذلك «أن أحوال جمهور الناس والمتفرعين لسماع الكلام حائمة حول ما ينعم أو يشجو»[60].

وعطفا على ما سبق، فإن العلاقة بين الشعر والرّحلات علاقة انسجام، فما يرتبط بالرحلات من ذكر الأماكن والأشخاص والأحداث والأوصاف يصبح موضوعا للشعر، حيث يصف الشاعر الكثير من أحداث رحلته، وتدفعه الرّحلة إلى التذكر والحنّين، فلولا الرّحلة ما وصف الرّحالة مشاعرهم وأشواقهم وحنينهم ومظاهر الطبيعة حولهم والأخطار التي تواجههم بالإضافة إلى إمكانية الاستدلال بالرحلة على تاريخ ما اتصل بأحداثها ووقائعها من شعر[61].

ولذلك، فإن تمثيل الرّحالة للمشهد في الفّن الشعري بهذا الشكل اشارة إلى مفهومه للتخييل من أنه يدّل على علاقة العمل التأريخي بالواقع من جهة، ومن جهة أخرى أن التخييل لا يعني النسخ والمطابقة، بل يقف عند حدّ المشابهة والمماثلة، وبهذا يكون مفهوم التخييل الذي يصاحب التشبيه هو عدم مطابقة الواقع أو تقليده، بل هو اعاده صياغة معطيات الواقع وتشكيله تشكيلا يبدو في صورة أفضل أو أسوأ مما هو عليه، أي أن يضفي عليه حسنا أو قبحا أو صفة بحيث تجعله يتجاوز هذا الواقع، لأن هدف التخييل هو «أن تخيل في الأمر الذي فيه المخاطبة حالا ما أو شيئا أفضل أو أحسن وذلك إمّا جمالا أو قبحا أو جلالة أو هوانا أو غير ذلك مما يشاكل كل هذه»[62].

ومن البيّن، أن الرّحالة حين يصوّر فكرة ما -التي هي في الحقيقة صورة منعكسة عن تجربته الشعورية أو الانفعالية، تتجاوز المألوف وتكسر رتابته، لتكون مبتكرة على غير مثال سابق- يستحضر خياله ليكشف عن شفرات النص وأنظمته المختلفة، ولكي يتخيّل المتلقي تلك الصورة المشكلة، عليه أن يشحذ مخيلته بقدر الطاقة الذّهنية التي استثمرها المبدع في ابتداع تلك الصورة، وفي حالة عجز المتلقي عن بلوغ مرامه في التقليب والتحليل، فإن ذلك من شأنه إضعاف عملية التصوّر، ومن ثم تعطيل عملية الاستيعاب برّمتها، ذلك أن ما يحكم علاقة الشاعر بالمتلقي في هذا المجال، انّما هو عدوى الانفعال التي تثيرها تلك الصورة التأريخية في نفس المتلقي.

ومن بديع ما يقع فيه التخييل ويحتاج إلى التأمل في المعنى وتحريك الذهن استدلالا وتدرجا، إيراد نص لابن خلدون، وهو عبارة عن مساجلة شعرية بينه وبين ابن الخطيب، يهنئه بقدومه إلى الأندلس، إذ يقول: «..وحططت بجبل الفتح وهو يومئذ لصاحب المغرب، ثم خرجت منه إلى غرناطة وكتبت إلى السّلطان ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب بشأني، وليلة بتّ بقرب غرناطة .. لقيني كتاب ابن الخطيب يهنّئني بالقدوم ويؤنسني ونصّه.[63]

حَلَلْتَ حُلُولَ الْغَيْثِ فِي الْبَلَدِ الْمَحْلِ عَلَى الطَّائِرِ الْمَيْمُونِ وَالرَّحْبِ وَالسَهْلِ
يمينـــاً بمن تعنو الوجوه لوجهه من الشيخ والطفل المعصب والكهل
لَقَدْ نَشَاَتْ عِنْدِي لِلُقِيَاكَ غِبْطَةٌ تُنَسِّي اغْتِبَاطِي بِالشَّيْبــةِ وَالْأَهْـــلِ
وَوِدِّيَ لاَ يُحْتَــاجُ فِيهِ لِشَــاهِـــدٍ وَتَقْرِيرِيَ الْمَعْلُومَ ضَــرْبٌ مِنَ الْجَهْـلِ

ولعلّ في الأبيات المذكورة دلالة إيحائية تحمل معاني الغبطة والسرور والرّحب بالزائر المُحِل دون أن نجشم أنفسنا مشقة التأويل ومدارج التحليل، فهذه الإيحائية في صورة البيت الأول كانت موطن المتعة والإحساس بجمال الصورة الشعرية بالمنظور الأسلوبي الحقيقي وليس المجازي، فقد «لا تلتزم ضرورة أن تكون الألفاظ والعبارات مجازية، فقد تكون العبارات حقيقية الاستعمال، وتكون مع ذلك دقيقة التصوير»[64] .

خاتمة:

نصل في نهاية هذا البحث إلى النتائج التالية:

ـ صعوبة معالجة أدب الرّحلة في نطاق الأدب المغربي القديم دون ربطه بالأدب الأندلسي، ولعلّ الرابط التاريخي والثقافي لهذا الوصل الحضاري راجع للخصائص الدّينية واللغوية الوثيقة بين العُدوتين، والتي كان لكل منهما أثر بارز في ذلك الامتزاج في بوتقة واحدة.

ـ يقوم النص الرّحلي في بعده التشكيلي عامة على مبعثين اثنين هما: الانفعالية المقترنة بإثارة المتلقي، والحسّية التي تتشكل من مادة النّص وعلاقته بالمدركات الحسية المنقولة عن الواقع فالرّحالة حين يصوّر فكرة ما - التي هي في الحقيقة صورة منعكسة عن تجربته الشعورية أو الانفعالية تتجاوز المألوف وتكسر رتابته(اعتماده على مبدأ المفارقة والغرابة) لتكون مبتكرة على غير مثال سابق - يستحضر خياله للكشف عن شفرات النص وأنظمته المختلفة، ولكي يتخيّل المتلقي تلك الصورة المشكلة، عليه أن يشحذ مخيلته بقدر الطاقة الذهنية التي استثمرها الرّحالة الكاتب في ابتداع تلك الصورة و من هنا يصبح تأريخ المدركات والوقائع عملية ذهنية مشتركة بين الرّحالة الكاتب والمتلقي والقاسم المشترك بينهما هو الانفعال.

ـ للوصول إلى أعماق النّص الرّحلي عامة، وجب الوقوف على خصائصه البنائية بكل مكوناتها الأسلوبية والجمالية المرتبطة بالبنية النفسية، ليصبح النص الرّحلي ظاهرة جمالية تقف على عدّة زوايا مترابطة ومتكاملة فيما بينها، يمكن إجمالها في عنصر التصوير وما يتيحه من فرصة تجسيد المعنى تجسيد حسّي وتخييلي، لاسيّما في تصّور العلاقة بين الأشياء المتباعدة والمتنافرة ومدى تأثيرها على المتلقي، سواء بمدلولها الحسّي الذي يتشكل بكل صنوف التعابير المجازية أو بمدلولها الإيحائي الذي يضفي على الشكل أكثر من تفسيره الظاهري دونما غلو أو مبالغة .

ـ المثول أمام الزمن الطبيعي الذي يرتبط بالواقع ارتباطا وثيقا، حتى تتفاعل الحواس مع هذه المدركات، ولعلّ هذا التوجه جعل متصوّر الرّحلة عند العرب بوجه عام وعند المغاربة والاندلسيين على وجه الخصوص، محكوما باستقطاب عنصر الزمن له، لأنه يشكل قطب الرّحى في تحريك وتطور وقائع الرّحلة، فبحضوره تتضح بنية النّص الرّحلي عبر سياقات زمنية مختلفة شكلا ومضمونا، ذلك أن فهم الرّحلة واكتمال معالمها وصورها مرتبط أساسا بالتسلسل الزمني الكرونولوجي لها، لجعل هذه الرحلة وثيقة تاريخي معتمدة.

هوامش الدراسة

[1]- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي (التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيّل) الهيئة العامة لقصور الثقافة،2002، ص38.

2- شاكر خصباك، في الجغرافية العربية، دراسة في التراث الجغرافي العربي، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1:1988، بيروت، لبنان، ص181.

3- محمد الفاسي، الرحالة المغاربة وآثارهم، مجلة دعوة الحق، العدد 14، 1959،وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، الرباط، ص10.

4- خليف مصطفى غرايبة، الرحلات الجغرافية في التراث العربي الإسلامي في القرنين الرابع والخامس الهجريين جامعة البلقاء التطبيقية، مجلة حوليات التراث، العدد 1، 2011،الأردن، ص119.

5- خالد توزاني، الرحلة وفتنة العجيب بين الكتابة والتلقي، دار السويدي للنشر والتوزيع، ط1، 2017،أبو ضبي، الامارات، ص14.

6- حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1983م بيروت، ص6، 7.

7- المرجع نفسه، ص8.

8- إغناطيوس كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي عند العرب، نقله إلى العربية، صلاح الدين عثمان هاشم لجنة التأليف والترجمة والنشر، الجزء الأول، 1957،مصر، ص18.

9- جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1984، ص122.

10- شوقي ضيف، الرحلات، دار المعارف، 1987القاهرة، ص6، 7.

11- أسماء أبو بكر محمد، ابن بطوطة الرجل والرحلة، دار الكتب العلمية، بيروت، ص13.

12- صالح الدين علي الشامي، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الكشف الجغرافي والدراسة الميدانية، منشأة المعارف،1999، د ط، الإسكندرية، ص11، 121.

13- المرجع نفسه، ص11.

14- حسينى محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، ص6.

15- خالد توزاني، الرحلة وفتنة العجيب بين الكتابة والتلقي، ص15.

16- اغناطيوس كراتشكو فسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص25.

17- عمر بن عبد العزيز السيف، بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية (الأسطورة والرمز)، مؤسسة الانتشار العربي، ط1، 2009،بيروت، لبنان، ص53.

18- المرجع نفسه، نفس الصفحة.

19- وهب رومية، الرحلة في القصيدة الجاهلية، مؤسسة الرسالة، ط2، 1979م، بيروت، ص 20، 29.

20- نوال عبد الرحمن شوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون للنشر والتوزيع، ط1 ، 2008، ص89.

21- علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، مكتبة الجامعة العربية، الجزء الأول، الطبعة الثانية، 1966 بيروت، ص259.

22- عمر قينة، اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية،1995م د ط، بن عكنون، الجزائر، ص 11.

23- عمر بن قينة، الخطاب القومي في الثقافة الجزائرية، اتحاد الكتاب العرب: 1999،دمشق، ص 8.

24- عمر قينة، اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة، ص11.

25- خالد توزاني، المرجع نفسه، ص19.

26- نوال عبد الرحمن شوابكة، المرجع نفسه، ص89.

27- ناصر عبد الرزاق الموافى، 1995، الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابع الهجري) ط1، دار النشر للجامعات المصرية، مكتبة الوفاء، ص21.

28- عمر قينة، المرجع نفسه، ص13/12.

29- صالح الدين علي الشامي، المرجع نفسه، ص127.

30- نوال عبد الرحمن شوابكة، المرجع نفسه، ص21.

31- المرجع نفسه، ص91

32- سميرة أنساعد صورة المشرق العربي من خلال رحلات، مجلة التراث، اتحاد الكتاب العرب، دمشق2005، ص104.

33- الطاهر توات، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن الهجريين الجزء الأول، الطبعة الثانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص41.

34- عواطف محمد يوسف النواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر التاريخ الحجاز في القرنين 2و8 الهجريين، مكتبة الملك فهد الوطنية، 1996، الرياض، ص 12، 44.

35- فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط2: 2002م القاهرة، ص18.

36- صلاح الدين الشامي، المرجع نفسه، ص14.

37- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار الأحياء الّتراث العربي، الجزء الأول، بيروت، ص 541.

38-محمد طمار، تاريخ الأدب الجزائري، ديوان المطبوعات الجزائرية، ط2، 2010، بن عكنون الجزائر ص114.

39- محمد عبد المؤمن، الرحلات العلمية بالأندلس خلال عصر المرابطين والموحدين من خلال كتب التراجم مجلة الاصلاح، العدد148، نوفمبر2019، منتدى الفارابي للدراسات والبدائل، صفاقص، تونس ص74.

40- المرجع نفسه، نفس الصفحة.

41- المرجع نفسه، نفس الصفحة.

42- فاتن كوكة، التصنيف اللغوي والأدبي في عصري المرابطين والموحدين 484 هـ ـ 670 هـ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب2012م ، وزارة الثقافة، دمشق، ص30، 31.

43- عبد الكريم طاهير، الحركة العلمية بين الأندلس والمغرب في العصر المرابطي بين تأثيرات الأندلس وتجاوب بلاد المغرب، مجلة أنثروبولوجية الأديان، العدد21، ص69، 71.

44- نوال عبد الرحمن شوابكة، المرجع نفسه، ص24.

45- محمد عبد المؤمن، المرجع نفسه، ص68.
46- نوال عبد الرحمن شوابكة، المرجع نفسه، ص24.
47- المرجع نفسه، ص26.
48- ابن خلدون، (المقدمة)، مكتبة ودار المدينة النورة، الدار التونسية للنشر:1984، ص702.
49- عمر بن قينة، المرجع نفسه، ص12.
50- مختارية بزاوية، الرحلات الجزائرية تاريخ وعلم وأدب، "أنفس الذخائر وأطيب المآثر للشيخ الطيب المهاجي أنموذجا، مجلة عصور الجديدة، المجلد9، العدد3، نوفمبر 2019، ص277، 278.
51- المرجع نفسه، ص277.
52- خالد توزاني، المرجع نفسه، ص18.
53- عبد الملك مرتاض، قضايا الشعريات، متابعة وتحليل لقضايا الشعر المعاصرة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية، قسنطينة الجزائر، ص 14.
54- عمر بن عبد العزيز السيف، بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية، ص11.
55- بديعة الخرازي، مفهوم الشعر عند نقاد المغرب والأندلس في القرنين السابع والثامن الهجريين، دراسة نقدية وتحليلية، دار نشر المعرفة، ط1، 2005، المغرب، ص 31.
56- حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، ص6.
57- نوال عبد الرحمن شوابكة، المرجع نفسه، ص97، 98.
58- المرجع نفسه، ص97.
59- أبو محمد القاسم السجلماسي، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تحقيق علال الغازي، الطبعة الأولى، مكتبة المعارف:1980، الرباط/المغرب، ص253.
60- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، الطبعة الأولى المطبعة الرسمية:1966، تونس، ص357.
61- محمّد بن تاويت الطنجي، رحلة ابن خلدون، الطبعة الأولى، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ضبي الامارات:2003، ص127.
62- الفت كمال الروبي، نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين من الكندي حتى ابن رشد، الطبعة الأولى، دار التنوير للطباعة النشر:1983، بيروت، ص82.
63- نوال عبد الرحمن شوابكة، المرجع نفسه، ص97.
64. محمد غنيمي هلال، ، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، الطبعة الأولى، 1982م، بيروت، ص432.

المصادر والمراجع

1 ـ شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي (التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيّل) الهيئة العامة لقصور الثقافة،2002.
2 - شاكر خصباك، في الجغرافية العربية، دراسة في التراث الجغرافي العربي، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1:1988، بيروت، لبنان.

3 - محمد الفاسي، الرحالة المغاربة وآثارهم، مجلة دعوة الحق، العدد 14، 1959،وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، الرباط، .
4- خليف مصطفى غرايبة، الرحلات الجغرافية في التراث العربي الإسلامي في القرنين الرابع والخامس الهجريين جامعة البلقاء التطبيقية، مجلة حوليات التراث، العدد 1، 2011،الأردن.
5 - خالد توزاني، الرحلة وفتنة العجيب بين الكتابة والتلقي، دار السويدي للنشر والتوزيع، ط1، 2017،أبو ضبي، الامارات .
6 - حسني محمود حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، 1983م بيروت.
7 - إغناطيوس كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي عند العرب، نقله الى العربية، صلاح الدين عثمان هاشم لجنة التأليف والترجمة والنشر، الجزء الأول، 1957،مصر.
8- جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1984.
9- شوقي ضيف، الرحلات، دار المعارف، 1987القاهرة.
10- أسماء أبو بكر محمد، ابن بطوطة الرجل والرحلة، دار الكتب العلمية، بيروت.
11- صلاح الدين علي الشامي، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الكشف الجغرافي والدراسة الميدانية، منشأة المعارف،1999، د ط، الإسكندرية.
12- عمر بن عبد العزيز السيف، بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية (الأسطورة والرمز)، مؤسسة الانتشار العربي، ط1، 2009،بيروت، لبنان،.
13- وهب رومية، الرحلة في القصيدة الجاهلية، مؤسسة الرسالة، ط2، 1979م، بيروت.
14-علي الجندي، في تاريخ الأدب الجاهلي، مكتبة الجامعة العربية، الجزء الأول، الطبعة الثانية، 1966 بيروت.
15- عمر قينة، اتجاهات الرحالين الجزائريين في الرحلة العربية الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية،1995م د ط، بن عكنون، الجزائر.
16- عمر بن قينة، الخطاب القومي في الثقافة الجزائرية، منشورات اتحاد الكتاب العرب: 1999،دمشق.
17- ناصر عبد الرزاق الموافى، 1995، الرحلة في الأدب العربي (حتى نهاية القرن الرابه الهجري) ط1، دار النشر للجامعات المصرية، مكتبة الوفاء.
18- نوال عبد الرحمن شوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المأمون للنشر والتوزيع، ط1 ، 2008، الأردن.
19- سميرة أنساعد صورة المشرق العربي من خلال رحلات، مجلة التراث اتحاد الكتاب العرب، دمشق2005.
20- الطاهر توات، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن الهجريين الجزء الأول، الطبعة الثانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
21- عواطف محمد يوسف النواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر التاريخ الحجاز في القرنين 2و8 الهجريين، مكتبة الملك فهد الوطنية، 1996، الرياض.
22- فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، الطبعة الثانية: 2002م القاهرة.
23- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار الأحياء الّتراث العربي، الجزء الأول، بيروت.

24- محمد طمار، تاريخ الأدب الجزائري، ديوان المطبوعات الجزائرية، الطبعة الثانية، 2010، بن عكنون، الجزائر.
25- محمد عبد المؤمن، الرحلات العلمية بالأندلس خلال عصر المرابطين والموحدين من خلال كتب التراجم، مجلة الاصلاح، العدد148، نوفمبر2019، منتدى الفارابي للدراسات والبدائل، صفاقص، تونس.
26- فاتن كوكة، التصنيف اللغوي والأدبي في عصري المرابطين والموحدين 484 هـ ـ 670 هـ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب2012م ، وزارة الثقافة، دمشق.
27- عبد الكريم طاهير، الحركة العلمية بين الأندلس والمغرب في العصر المرابطي بين تأثيرات الأندلس وتجاوب بلاد المغرب، مجلة أنثروبولوجية الأديان، العدد21.
28 - ابن خلدون، (المقدمة)، مكتبة ودار المدينة النورة، الدار التونسية للنشر:1984.
29 - مختارية بزاوية، الرحلات الجزائرية تاريخ وعلم وأدب، "أنفس الذخائر وأطيب المآثر للشيخ الطيب المهاجي أنموذجا، مجلة عصور الجديدة، المجلد9، العدد3، نوفمبر 2019.
30- عبد الملك مرتاض، قضايا الشعريات، متابعة وتحليل لقضايا الشعر المعاصرة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية، قسنطينة الجزائر.
31 - بديعة الخرازي، مفهوم الشعر عند نقاد المغرب والأندلس في القرنين السابع والثامن الهجريين، دراسة نقدية وتحليلية، دار نشر المعرفة، ط1، 2005، المغرب.
32- أبو محمد القاسم السجلماسي، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تحقيق علال الغازي الطبعة الأولى، مكتبة المعارف:1980، الرباط/ المغرب.
33 - حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، الطبعة الأولى المطبعة الرسمية:1966، تونس.
34- محمّد بن تاويت الطنجي، رحلة ابن خلدون، الطبعة الأولى، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ضبي الامارات:2003.
35 - الفت كمال الروبي، نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين من الكندي حتى ابن رشد، الطبعة الأولى، دار التنوير للطباعة النشر:1983، بيروت.
36. محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، الطبعة الأولى، 1982م، بيروت.